**سيرة حياة الكاتب والروائي**

 **يحيى يخلف**

**إعداد**

**عثمان محمد عثمان حسين**

**2011**

**تقديم**

تناولت في هذا البحث سيرة حياة كاتب وروائي كبير، بزغ نجمه في سماء الأدب العربي في القرن العشرين. واستطاع بما فطر عليه من مواهب وما مر به من أحداث وتجارب أن يخلد اسمه في سجل العربية الخالد.

وما زال نهر عطاء يحيى يخلف متدفقا حتى كتابة هذه السطور، يغذي به قضية شعبه الأساسية التي لم يبخل عليها يوما بما يملك.

وقد اعتمدت في بحثي هذا على كثير من المعلومات القيمة التي زودني بها الكاتب يوم التقيته بمقر المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم في مدينة رام الله.

قمت بتقسيم هذا البحث إلى ثلاثة فصول:

الأول: تحدث فيه عن سيرة هذا الأديب منذ أن أبصر النور لأول مرة في قرية "سمخ" بالقرب من بحيرة طبرية سنة 1944 وحتى كتابة هذا البحث.

الثاني: عرضت فيه لأهم الأفكار والسمات الأساسية التي تميزت بها كتاباته.

الثالث: خصصته لعرض أهم أعماله الأدبية، وقمت بتقسيمها إلى:

1. المجموعات القصصية: وقام بكتابتها في بداية عهده بالكتابة.
2. أعماله الروائية: وقمت بترتيبها حسب الزمن الكتابي لكل منها. واختتمتها بالروايات التسجيلية منها.

**الفصل الأول**

**حياته في سطور**

**يحيى يخلف**

* ولد الكاتب والروائي الفلسطيني يحيى حسن يخلف في قرية "سمخ" الواقعة على الشاطئ الجنوبي لبحيرة طبرية عام 1944.
* احتل الإسرائيليون "سمخ" ودمروها عام 1948، فاضطرت أسرته للنزوح عنها، والتجأت إلى الأردن.
* عاشت أسرته في المنافي وفي مخيمات اللاجئين، وتلقى دراسته الابتدائية والثانوية في مدينة إربد (الأردن)، كما تلقى تعليمه العالي في رام الله وبيروت، ويحمل شهادة دبلوم المعلمين، وليسانس آداب.
* التحق في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية عام 1967، وشغل عدة مواقع سياسية، وإعلامية، وثقافية.
* تم انتخابه عام 1980 أمينا عاما للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ونائبا للأمين العام لاتحاد الأدباء العرب.
* شغل مواقع ثقافية عديدة منها مدير عام دائرة الثقافة في منظمة التحرير الفلسطينية، ورئيس المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم.
* شغل منصب وزير الثقافة في السلطة الوطنية الفلسطينية ما بين الأعوام 2003-2006.
* عضو المجلس الوطني، وعضو المجلس المركزي في منظمة التحرير.
* شارك كعضو في المجلس التنفيذي للمجلس القومي للثقافة العربية ( ومقره الرباط ) في أعمال المجلس وندواته ومؤتمراته.
* عضو في المجلس التنفيذي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليسكو).
* ترأس وفد فلسطين للعديد من مؤتمرات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (أيسيسكو).
* ترأس وفد فلسطين للعديد من مؤتمرات منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو).
* أصدر العديد من الأعمال والقصص الروائية، وفازت روايته (بحيرة وراء الريح) بجائزة فلسطين للآداب، لعام 2000.
* يعيش مع أسرته في مدينة رام الله، ويترأس الآن اللجنة الوطنية الفلسطينية للتربية والثقافة والعلوم، كما ويترأس اجتماعات اللجنة المشتركة بين منظمة التحرير الفلسطينية ومنظمة اليونسكو.
* رئيس اللجنة العربية لإعداد خطة العمل المستقبلي للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الألسكو) 2011 -2016.
* صدر له العديد من المجموعات القصصية والروائية، أبرزها:
* المهرة: مجموعة قصصية – بغداد، وزارة الإعلام العراقية، 1974.
* نورما ورجل الثلج: مجموعة قصصية – بيروت، دار ابن رشد، 1977.
* تلك المرأة الوردة : رواية– بيروت، دار ابن رشد، 1980.
* نجران تحت الصفر: رواية– بيروت، دار الآداب، 1976.
* تفاح المجانين: رواية - بيروت، دار الحقائق، 1982.
* نشيد الحياة: رواية- بيروت، دار الحقائق، 1985.
* بحيرة وراء الريح: رواية – بيروت، دار الآداب، 1991.
* تلك الليلة الطويلة: رواية تسجيلية– بيروت، دار الآداب، 1992.
* نهر يستحم في البحيرة: رواية – عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1997.
* يوميات الاجتياح والصمود: رواية تسجيلية– عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع،2002.
* ماء السماء: رواية- عمان دار الشروق للنشر والتوزيع، 2008.
* جنة ونار: رواية ( تحت الطبع ).

**الفصل الثاني**

**منارات مضيئة في أعماله الأدبية**

**أولا**: يعد يحيى يخلف كاتبا ملتزما بالثورة الفلسطينية، ومؤمنا بالوحدة الفلسطينية والوحدة العربية. وهذا أمر ليس بمستهجن على إنسان وشجت عروقه إلى عرق ثرى فلسطين، وتفتحت عيناه على سهولها وجبالها ووديانها بالرغم من مفارقته لها وهو طفل لم يتجاوز الرابعة من عمره، غير أن روائح شومرها وطيونها لم تزل تعبق في أنفه، وبقيت أصوات أجران القهوة وحكايات السمار تدغدغ سمعه.

وبجوار هذا المنبت الطيب هناك وضع آخر ولكنه سيء الحال كريه الرائحة. فقد قضى الكاتب ردحا من الزمن يتنقل من بلد إلى بلد ومن مخيم إلى آخر. عاش في خيام متراصة تتراقص أمام لفح الرياح، وتبكي غزارا عند انهمار المطر. عاش حياة مترعة بالبؤس والحرمان. وتراه يصور جزءا من هذه المعاناة إذ يقول:

"عاش أولادي منذ طفولتهم ظروف الحرب والحصار والشتات.. في اجتياح عام 1982 وحصار بيروت، كان هيثم في التاسعة، وطارق في الرابعة، أما رامي فلم يكن أكمل عامه الأول.. وذاق الأولاد معنا بعد ذلك عذابات الغربة، ومن منفى إلى منفى، ومن مطار إلى مطار.. من بيروت إلى دمشق ومن دمشق إلى الجزائر، ومن الجزائر إلى تونس. عاشوا في ظروف مختلفة، ودخلوا باكرا في مرحلة الاغتراب والقلق الوجودي.. دخلوا مدارس كانوا فيها غرباء. وتغيرت عليهم خلال ثماني سنوات خمسة مناهج تعليمية، وكان كل واحد منهم يحمل جواز سفر يختلف عن جواز سفر أخيه، وتعرضوا للمساءلة والتحقيق في المطارات وعرفوا– وامتلكوا الوعي بالحقيقة– أن لا وطن لهم إلا فلسطين "(1).

وقرت قضية تحرير فلسطين قلب يحيى يخلف، وامتلكت عليه وجدانه، وبقيت شغله الشاغل في جميع أعماله الأدبية. ولم يبد منها مغردا خارج هذا السرب إلا باكورة أعماله الروائية "نجران تحت الصفر" التي كتبها من وحي تجربته هناك عندما عمل مدرسا سنة 1967، إلا أن الكاتب يراها غير ذلك :"ما كان يمكن أن أكتب هذه الرواية لو لم أعش تلك التجربة. كنت في ذلك الوقت قوميا حالما.. وكنت أحاول أن أقدم رواية بعين مواطن عربي يعتبر أن انتصار معركة التحرر العربي في جزء من أجزاء الوطن العربي يقربه من وطنه فلسطين. فجاءت تلك الرواية التي اعتبرها بالنسبة لي رؤية "(2).

**ثانيا**: تميزت أعماله الأولى القصصية منها والروائية بمحاولة البحث عن لغة أو أسلوب، عبر فيها الكاتب عما يسمى "سر القوة"، تلك القوة التي بإمكانها أن تحفظ للشخصية الفلسطينية اندماجها في مواجهة مرحلة الذوبان التي باتت عليها إثر انكسارها وتشظيها بعد حادثة النكبة، وتدعم موقفها لمواجهة مرحلة اليأس والإحباط التي مرت بها.

ويمكن تسمية هذه المرحلة بمرحلة الإرهاصات الثورية التي سبقت الكفاح المسلح وإعادة اللحمة إلى الشخصية الفلسطينية، وتجلى ذلك في ولادة منظمة التحرير الفلسطينية.

والبحث عن "سر القوة" هو الذي جعل الفتى اليافع الذي هو نموذج للطفل الفلسطيني المغترب المنكود الضعيف، ينجذب إلى امرأة تكبره سنا لأنه رأى فيها نموذجا قويا يمثل الشخصية الفلسطينية في رواية "تلك المرأة الوردة". وهو الطفل نفسه "بدر العنكبوت" الذي قام بعدة محاولات للاهتداء لسر القوة ووجده أخيرا ممثلا في الخال الفدائي في رواية "تفاح المجانين"(3).

كما يمكن القول أن تلك المرحلة امتازت بلغتها الخاصة؛ فبعد أن كانت مقهورة ويائسة حينا وجادة وعنيفة حينا آخر في أعمال الكاتب الأولى، نراها أصبحت بسيطة صادقة ومعبرة فيما تلاها من أعمال كرواية "نشيد الحياة". وذلك بعد أن وجد الكاتب انتماءه في "الدامور"، وأيقن أنه عثر على نموذج الفلسطيني المنشود حين زاوج أفراده بين الجانبين المادي والثوري.

**ثالثا**: مصادر معلومات الكاتب

يتطابق الزمنان الروائي والكتابي في بعض أعمال الكاتب الروائية، ويختلفان في بعضها الآخر.

يعود الزمن الكتابي لأهم أعمال الكاتب الروائية إلى:

"نجران تحت الصفر" 1976، و"تلك المرأة الوردة" 1980، و"تفاح المجانين" 1982، و"نشيد الحياة" 1985، و"بحيرة وراء الريح" 1991، و"تلك الليلة الطويلة" 1992، و"نهر يستحم في البحيرة" 1997، و"يوميات الاجتياح والصمود" 2002، و"ماء السماء" 2008م.

ويمكن ترتيب النصوص السابقة بناء على زمنها الروائي كالتالي:

"بحيرة وراء الريح"، "ماء السماء"، "تلك المرأة الوردة"، "تفاح المجانين"، "نجران تحت الصفر"، "نشيد الحياة"، "تلك الليلة الطويلة"، "نهر يستحم في البحيرة"، "يوميات الاجتياح والصمود". وبمقابلة الزمن الروائي وعمر الكاتب في حين جريان الزمن الروائي، نجد التالي:

تجري أحداث "بحيرة وراء الريح" يوم كان الكاتب لا يتجاوز الأربعة أعوام، وكان له من العمر عشرة أعوام تقريبا إبان أحداث "ماء السماء" و"تفاح المجانين" و "تلك المرأة الوردة". أما عمره إبان أحداث "نجران تحت الصفر" فكان الثانية والعشرين، وإبان أحداث "نشيد الحياة" الثامنة والثلاثين، وإبان أحداث "تلك الليلة الطويلة" الثامنة والأربعين، وإبان أحداث "نهر يستحم في البحيرة" الخمسين عاما، وخلال "يوميات الاجتياح والصمود" الثامنة والخمسين تقريبا(4).

وهذا يعني أن الزمنين الروائي والكتابي يتطابقان في "نشيد الحياة" و "تلك الليلة الطويلة" و"نهر يستحم في البحيرة" و "يوميات الاجتياح والصمود"، أما في الروايات الأخرى فيختلفان.

وهذا يعني أيضا أن الكاتب يعتمد على الرؤية والمشاهدة الآنية اللحظية في الروايات التي يتطابق فيها الزمنان الكتابي والروائي طورا، وعلى الذاكرة سواء كانت ذاكرته أو ذاكرة غيره في الروايات التي لا يتطابق فيها الزمنان الكتابي والروائي طورا آخر.

وباستثناء رواية "تلك الليلة الطويلة"، فإن الكاتب يعتمد على تجاربه ومشاهداته بشكل أساسي لأنه يراها أنقى السبل لإقامة معمار بنائه الفني، وفي ذلك يقول:

"إن أي كاتب يمكن أن يكتب عن تجربة معاشة أو تجربة ذهنية يتخيلها. أنا أعتقد أن التجربة المعاشة هي أكثر صدقا من التجربة الذهنية. وأي كاتب لا يكتب عما عاشه أو عايشه لا يستطيع أن يكتب بصدق إلا عن أدب الخيال العلمي. ولكن الأدب الواقعي يجب أن يكون له علاقة بتجربة الكاتب"(5).

لكن هذا لا يعني أن يحيى يخلف يعتمد اعتمادا كليا على تجاربه ومشاهداته وحدها، إذ لا بد له من الإصغاء إلى قصص الآخرين وحكاياتهم لأكثر من سبب:

* منها ما يعود لتربيته، حيث كان والده ينهاه عن الإعجاب بنفسه كثيرا حتى لا يصبح متغطرسا.
* ومنها اندغام يحيى يخلف في الثورة منذ وقت مبكر، مما أدى إلى تراجع الالتفات إلى الذات لديه أمام الالتفات إلى العام، لأن ضخامة الأحداث وعمق المأساة يفرض عليه ذلك.
* ومنها اختلاف موضوع رواياته؛ ففي أحيان كثيرة يؤرخ لأحداث غير فردية كسقوط المدن والقرى الفلسطينية، أو لكونه صغيرا حين ذاك.

وخلاصة الأمر، أن يحيى يخلف قلما كتب نصوصا تتصدرها الفكرة المجردة، إنه يكتب أساسا عن تجارب عاشها غيره وكان هو شاهدا عليها مثل "نجران تحت الصفر"، أو عن تجارب عاشها في طفولته ودونها حين كبر واحترف الكتابة مثل "تفاح المجانين"، أو عن تجارب عاشها غيره وقصها هؤلاء على الكاتب مثل " تلك الليلة الطويلة". لكن هذا لا يعني أنه لا يترك ظلاله على ما يكتب، وهو دائم الحضور في نصصه القصصي.

هناك نغمة واحدة تتردد دائما وبإلحاح في رواياته وقصصه الطويلة، وهي تعاطفه مع الفقراء والمسحوقين وانحيازه إلى عالمهم، وفي تركيزه على البعد القومي للقضية الفلسطينية، ومن هنا كانت كتابته رواية "نجران تحت الصفر" لأنه كان يعد انتصار الثورة في أي جزء من الوطن العربي رافدا يرفض خضم نهر الثورة الفلسطينية(6).

**الفصل الثالث**

**عرض لأهم أعماله الأدبية**

**أولا: الأعمال القصصية**

**ثانيا: الأعمال الروائية**

**أولا: الأعمال القصصية**

كتب يحيى يخلف القصة القصيرة والشعر منذ وقت مبكر، إلا أنه تخلى عن الشعر لصالح القصة، غير أن الشعر ما يزال يجري على لسانه في قصصه ورواياته، وحتى في حديثه اليومي.

قام بنشر محاولاته القصصية الأولى التي يسميها (خربشات أولية) في مجلة "الأفق الجديد" و"الآداب البيروتية" وبعض الصحف المحلية في الضفة الغربية والأردن في حينه. وبعد استواء الأمر له قام بإصدار مجموعتين من القصص هما: "المهرة" 1974، و"نورما ورجل الثلج" 1977.

اتجه يحيى يخلف بعد كتابة هاتين المجموعتين إلى التأليف الروائي، إذ وجد فيه من الشمولية وطول النفس ما لم يجده في القصة "إنني أجد في الرواية مجالا أوسع، حيث يستطيع الكاتب من خلالها أن يذهب بعيدا في الزمان والمكان، ويطور الأحداث بشكل أفضل"(7).

تتكون مجموعة قصص "المهرة" من تسع قصص. كتبها بين عامي 1967-1972. وهي فترة حرجة في تاريخ الأمة العربية، شهدت فيها حادثة النكسة وما تلاها من أحداث، أصابت الأمة العربية على إثرها حالة من اليأس والقنوط، عبر عنها الكاتب في قصتيه "المشجب" و"العجز".

قصة العجز

هي قصة رمزية ذات دلالات واضحة، تصور الوطن العربي على هيئة رجل عاجز، يسير على كرسي بعجلات، ويسكن في غرفة في الطابق الثالث، وقد أصاب الشلل ساقيه أثناء قيامه بأداء الواجب.

يعيش هذا الرجل في غرفته في عالم ضيق. وحين تأتي إليه امرأة لتهتم بأمور الغرفة.. تطبع على خده قبلة، وتغادر دون أن تأخذ أجرا، عندها يصرخ: يا إلهي؟ كيف يطيقون العجز؟.

أما بقية قصص المجموعة فتتكون من سبع قصص، هي: "الطائر الأخضر"، "يد أيلول ذات الأظافر"، "يوميات المواطن سين"، "الحلم"، "لحن الثورة"، "المهرة"، "موت بائع الياسمين".

أبرز ما قصد إليه يحيى بخلف في هذه القصص هو اختيار النضال طريقا لمحو آثار العدوان، كما أكد فيها على قربه من الفقراء والمسحوقين وتعاطفه مع قضاياهم. وهو الأمر الذي نلمسه في معظم أعماله الأدبية.

قصة موت بائع الياسمين

يمكن اعتبار هذه القصة ساحة حرب تتصارع فيها قوتان: الأولى قوة الحق والخير والنقاء ممثلة في بائع الياسمين. والثانية قوة الباطل والشر والضبابية ممثلة في عدد من الأشخاص من بينهم الراقصة والثري الذي يلاحقها وبقدم لها قلائد الياسمين.

تتفتح أحداث النص على صوت عال ينذر بوجود خطر ما قد يكون غارة جوية، تنعدم على أثره الحركة في الشارع، ويحتمي الناس بالملاجئ .

كان بائع الياسمين ينظر إلى السيقان الفارة وهي تتراكض نحو الملاجئ، والوجوه الكالحة وقد زاغت منها العيون نظرة استهجان وازدراء. اختفى كل من في الشارع وبقي وحيدا ليبدي ضروبا من الشجاعة والأمانة يعجز عنها الوصف؛ تناول علبة السجائر ودفع ثمنها بالرغم من عدم وجود صاحب الدكان، وحين وجد خزنة الفندق الحديدية مفتوحة أبى أن يأخذ منها شيئا، وعندما شبت النار في الفندق قام وحده بإطفائها.

كان بائع الياسمين شجاعا ونبيلا. غير أن هذا لم يشفع له عند الناس، إذ وجهت إليه التهم بسلب المحال التجارية أثناء تواجد الناس في الملاجئ.. وتكالبت عليه قوى الشر والعدوان، فسقط جثة هامدة تحت ضربات عصيهم.

بالرغم مما حدث، فقد بقيت قيم الخير والجمال التي يحملها حية من بعده، ممثلة برائحة الياسمين التي لم تذهب بموته، بذلك صرح كاتب الاستدعايات عند اقترابه من الجثة الهامدة، إذ قال باستغراب: لكن رائحته ذكية(8).

أما مجموعته القصصية الثانية "نورما ورجل الثلج "، فقد أصدرها في العام 1977، ودارت حول الحرب في لبنان، حيث شاركت فيها المقاومة الفلسطينية مشاركة فعالة بعد تبنيها مبدأ النضال، وكسرها طوق الخوف والعجز الذي خلفته انتكاسة 1967.

**ثانيا: الأعمال الروائية**

كتب يحيى يخلف العديد من الأعمال الروائية، تطابق في بعضها الزمنان الكتابي والروائي، واختلفا في البعض الآخر. وأقوم فيما يلي بعرض لأهم تلك الروايات، متبعا في ترتيبها الزمن الكتابي:

رواية "نجران تحت الصفر"

صدرت رواية "نجران تحت الصفر" عن دار الآداب ببيروت سنة 1976، أي بعد عشر سنوات من خوض الكاتب تجربة أحداثها، حيث عمل مدرسا في السعودية في حينها ، وبالتحديد في منطقة نجران القريبة من الحدود اليمنية، مما أتاح له فرصة الاطلاع على الأحداث عن كثب .

تعد هذه الرواية الوحيدة في الأدب العربي التي تتحدث عن الثورة اليمنية والمواقف منها في ستينات القرن العشرين. وهي رواية تتصف بالعذوبة والرشاقة مما جعلها تضع يحيى يخلف في الصف الأول من الروائيين العرب.

كتب يحيى يخلف هذه الرواية يوم كانت الثورة الفلسطينية قوية، عند مرحلة كان المد القومي فيها يتصاعد. وقد قدمت هذه الرواية نماذج للمثقف الثوري وهو في حالة فعل؛ فقد يدفع حياته ثمنا لها أو قد يعتقل ويعذب، أو قد ينحرف وينضم إلى المعسكر المضاد تحت إغراءات مادية وجنسية.

يتحدث الكاتب في هذه الرواية، التي تقع في 112 صفحة من القطع المتوسط، عن إنسان مناضل "بوشنان" فصل من عمله لأنه شارك العمال في الإضراب، ثم يعود إلى نجران، ويقيم فيها دون أن يعثر على عمل. وبناء على طلب من "بو طالب" يلتحق بقوات "المستر" ليعمل مترجما. ويغرقه "المستر" بالجنس والملذات.

يبدأ ضمير "بو شنان" في تأنيبه وبخاصة حين تذكر صديقه "اليامي" الذي قتل، وسرعان ما يهرب من مكان عمله في المعسكر مع "بو طالب" وينضم إلى صديقه "مشعان" ليقيما في حي الفقراء، ليواصل من هناك النضال.

- "إلى أين ؟

- إلى حارة السبيل.

- هل تسكن هناك يا مشعان؟

- يسكن هناك العمال والأجراء والفقراء ومن ليس لهم مأوى.

- ماذا تعمل؟

- أعيد ترتيب الأمور.

- أما أنا فقد---

- صه. أعرف كل شيء. في غياب النقابة يمكن أن يحدث كل ذلك- المهم أن نبدأ صفحة جديدة"(9).

رواية "تلك المرأة الوردة"

صدرت رواية "تلك المرأة الوردة" عن دار ابن رشد ببيروت سنة 1980، وتقع في 57 صفحة من القطع المتوسط، وبالرغم من صغر الرواية إلا أنها حصلت على وجود متميز.

تنطوي هذه الرواية على فكرتين أساسيتين:

الأولى: الدعوة إلى نبذ اليأس والتمسك بالأمل. وجسدها الفتى الراوي وهو نموذج للفتى الفلسطيني الذي تفتحت عيناه على واقع المأساة في مخيمات اللاجئين، "كنت ذلك الفتى الصغير الذي يمشي في أكواخ التنك صباح كل يوم إلى المدينة.. ويقع في كل عام طريح الفراش بسبب سوء التغذية وفقر الدم. كنت ذلك الفتى الصغير، الفج، الذي يلبس صندلا في الصيف والشتاء، ولا يخرج في الأعياد إلى المراجيح لأن ثيابه مرقعة"(10).

لم يستسلم الفتى لضعفه، وعندما أراد أن يعمل اختار عملا يناسب بنيته الضعيفة. ولضعفه أخذ يبحث عن سر القوة الذي يمكنه من تجاوز محنته والركون إلى حائط يرد عنه رياح الفقر والضياع. وقد وجده في فتاة تكبره سنا تدعى "انتصار"، لها وجه رائق وعينان صافيتان. إنها نموذج الشخصية الفلسطينية المنتصرة.

كانت "انتصار" ملاذ الفتى، وقد وجد فيها كل ما يصبو إليه. غير أن الطريق التي سلكها لم تكن هي الطريق الصحيحة المؤدية إلى تلك القوة التي ينشدها الفلسطيني المعذب في الخيام، فكان لا بد لهما من الافتراق لأن لكل منهما شخصية مغايرة.

الثانية: الدفاع عن البساطة والكرامة الإنسانية وعن كل ما هو جميل في حياتهم. ولأن حدثت في حياتهم تناقضات فهي بسيطة يمكن معالجتها بالروي والحكمة؛ فقد تقبلت "انتصار" اتهام الجماعة لها بسرقة الإسوارة الذهبية ولم تقم الدنيا وتقعدها، ولكن حين كان التناقض مع صاحب العمل "الثور" كان الأمر مختلفا:

" صرخت فجأة، صراخ القهر والوجع النائم في قلب الحجارة. كيف ينطق الجماد؟ وأنشبت أظفارها وغرزتها في وجهه.

توجع الرجل الثور. فوجئ. صاح. هجم عدد من الحرس الجدد وشدوها إلى الخلف. شدوا شعرها الطويل، فبصقت في وجوههم بينما كان الحقد يحول وجهها إلى حجارة من الصوان تهبط من عل وتتصادم ببعضها البعض"(11).

رواية "تفاح المجانين"

صدرت رواية "تفاح المجانين" عن دار الحقائق ببيروت سنة 1982، وهي رواية صغيرة الحجم، تقع في 95 صفحة من القطع المتوسط، وتتكون من ثلاثة أجزاء.

كتب يحيى يخلف هذه الرواية يوم كانت الثورة في أوجها حتى أنه صدرها بنص ذي دلالة واضحة، يعبر عن عزيمة الفلسطينيين، وإصرارهم على تحدي الصعاب ومواصلة الطريق:

"ما كان أكبر صبرهم جيل الآباء، وما أجمل حزنهم. تجرعوا المرارة وعاشوا زمن الكبوة والنهوض وكانوا شهود زمن الإنكسارات... عاشوا ولم يسأموا العيش، وظلوا يحلمون بالتحرير والعودة، وتغلبوا على اليأس بقوة"(12).

يفتتح الكاتب روايته بالمشهد الفلسطيني بعد النكبة، ويرسم مسار الزمن الفلسطيني في مطلع انكساره حيث حلت مخيمات الشتات وما هيمن عليها من فقر وقهر وبؤس، بدلا من المدن والقرى وما اتصفت به حياتها من رغد وطيبة.

تدور أحداث الرواية في منتصف الخمسينات، حيث السنوات الأولى للنزوح من فلسطين. وتتأسس الرواية في بنيتها ومنطقها الداخلي على سر الطفولة الهاربة والمتمردة على الواقع الجديد للفلسطينيين في مخيماتهم، ممثلة في شخصية "بدر العنكبوت" الذي يعكس موازيا واقعيا ودلاليا لسيرة الفلسطيني وبحثه عن القوة التي تمكنه من إعادة رسم مستقبله، وتلمس الطريق الصحيحة التي تؤدي به في نهاية المطاف إلى تجاوز الصعاب التي تعترضه، واستعادة أرضه الحبيبة.

تقوم الرواية في أجزائها الثلاثة على حكاية الطفل "بدر العنكبوت"، وتفتحه على الحياة المنكسرة أمامه، وبحثه المحموم عن سر الهزيمة وكيفية محوها والانتصار عليها(13).

"بدر العنكبوت" ولد مشاكس؛ كان طالبا في الصف ولكنه خارجه، يتزعم الأولاد في الحارة، وينصب الفخاخ، ويقوم بالألاعيب والأعاجيب. كان بإمكانه طي نفسه حتى يصبح بحجم قبضة اليد. كان نحيفا وخفيفا يشبك يديه برجليه ويلتف حول نفسه حتى يصير كالعنكبوت، ومن هنا لحق به هذا اللقب.

كان "بدر العنكبوت" يبحث عن "سر القوة" ويحاول لفت الأنظار إليه، فقام بأفعال بهلوانية تتناسب في بدايتها مع مستوى تفكيره ومرحلة طفولته: حشر نفسه ذات مرة في زير الماء محاولا استمداد القوة من لياقة جسمه للفت الأنظار إليه.. نجح في ذلك ولكن العقاب كان بانتظاره.

حاول "بدر العنكبوت" ثانية لفت الأنظار إليه عندما أطعم حماره " تفاح المجانين" ليصبح في قوة ألف حصان، بل جربه على نفسه أيضا. حدث ذلك عندما أكل الناس من ثمرة تفاح المجانين، حين داهمهم القحط وشح الماء فجاعوا وهاموا على وجوههم في البراري، فأصابهم المس وقاموا بأفعال جنونية.

وأخيرا اهتدى "بدر العنكبوت" إلى القوة التي ستنقله من الظلام إلى النور ومن عالم الخيال إلى أرض الواقع، وذلك حين التقى بخاله الفدائي "عبد الكريم" بعد الإفراج عنه، وخروجه من السجن. أخذ عبد الكريم يحدث الطفل عن بطولاته، ورسم له البندقية وكيفية عمل أجزائها. استوعب الطفل الفكرة وراح يصنع بندقية من الخشب.

تمثل محاولات "بدر العنكبوت" محاولات الفلسطينيين في مخيماتهم للبحث عن سبل الخلاص، حتى تحقق لهم ذلك من خلال انضوائهم تحت منظمة التحرير الفلسطينية، وسيرهم تحت راية الكفاح المسلح.

رواية "نشيد الحياة"

صدرت رواية "نشيد الحياة" عن دار الحقائق ببيروت سنة 1985، وهي تقع في 203 صفحة من القطع المتوسط، وتتكون من ثلاثة وثلاثين فصلا مرقما.

يتطابق الزمنان الروائي والكتابي في هذه الرواية. يتوقف الزمن الروائي فيها قبل خروج المقاومة الفلسطينية من بيروت، ويتحدث بالتحديد عن الهجمة الإسرائيلية التي اجتاحت لبنان 1982، وما تلاها من أحداث كان يحيى يخلف شاهدا عليها إذ كان قريبا من قواعد المقاومة، وتحدث عن تلك الانتصارات التي حققتها المقاومة عندما هاجمت مقر القيادة الإسرائيلية في "الدامور"، وأنزلت به خسائر فادحة.

تحققت في هذه الرواية تطلعات الكاتب التي كان يحلم بها في رواياته السابقة، إذ اهتدى الفلسطيني لسر القوة الذي كان يبحث عنه، ولم تنكسر إرادته بالرغم من الهزائم العديدة التي تعاقبت على المنطقة. ولذا جاءت لغة الرواية مختلفة عما كانت عليه في الروايات السابقة، إذ جاءت رقيقة جياشة صافية ساطعة بعد أن كانت متوهجة سريعة هادرة. كما وأن يحيى يخلف يعتبر "محصلة الرواية أنها أغنية حب للثورة، وتمجيد لبطولات الجماهير البسيطة، الطيبة، العادية، التي امتلكت الوعي السياسي والوطني، وبالوقت نفسه حملت البندقية ، وذاقت لذة الكفاح المسلح، ولذة القوة"(14).

تضمنت هذه الرواية قدرا كبيرا من النقد الذاتي الذي تركز أساسا على بعض المتنفذين في الثورة. وقد جاءت شخصيات روايته على نمطين:

الأول: شخصيات ثورية، لها مهن تمارسها في حياتها المدنية إضافة إلى تلبيتها نداء الواجب في أية لحظة. وهي جميعها كذلك باستثناء بعض الشخصيات التي فرض عليها عملها النضالي التفرغ بالكامل له مثل "حمزة شط العرب" الذي اكتسب هذا اللقب لبقائه الدائم في كمين المراقبة على شاطئ البحر لحماية الثورة من هجوم بحري.

وهناك شخصيات أخرى تمتاز بالبساطة والصدق، وبحثها الدائم عن الدفء الاجتماعي كشخصية " أبي العسل" و "زليخة" و"السنيورة". وهي شخصيات تمثل الوجه المشرق للثورة الذي كان يبحث عنه الكاتب.

الثاني: شخصيات مضادة للثورة وهي التي انصب عليها النقد، كشخصية (غير المنتمي) الذي مات ودفن بعد أن خرج من مخيم "تل الزعتر"، فأصابه الزهق واليأس لأنه لم يعد منتميا إلى الكفاح المسلح .

وهناك شخصيات أخرى مضادة للثورة كشخصية "سعيد راجي" المتسلق على جلد الثورة، حتى أضحى به المقام ليصبح رئيسا لإحدى وحدات أمن الثورة في بيروت. وشخصية المعادي للثورة، المتعاون مع العدو سرا الذي يقوم بإخفاء وجهه وهو يشاهد المعتقلين ليشير إلى من ينتمون إلى المقاومة من بينهم.

رواية "بحيرة وراء الريح"

صدرت رواية "بحيرة وراء الريح" عن دار الآداب ببيروت سنة 1991، وهي تقع في 277 صفحة من القطع المتوسط، وقد فازت بجائزة فلسطين للإبداع سنة 2000.

كتب يحيى يخلف أكثر من رواية يتحدث فيها عن معاناة اللاجئين الفلسطينيين؛ فقد كتب رواية "تلك المرأة الوردة "1980، ورواية "تفاح الجانين" 1982، ورواية "نشيد الحياة" 1985،غير أن الحلم استمر يراوده لكتابة رواية يضع يده فيها على بداية مأساة الشعب الفلسطيني وبالتحديد سنة 1948، حيث يعد هذا التاريخ منعطفا حاسما في تاريخ أي فلسطيني وفي تاريخ المنطقة العربية من المحيط إلى الخليج.

جاءت هذه الرواية بعد حوالي أربعين عاما من النكبة، ولذا عانى الكاتب من شح في المعلومات عن تلك الفترة، إذ غيب الموت كثيرا ممن وعوها، كما احتفظ هو بالقليل من أحداثها.

يعود يحيى يخلف في هذه الرواية إلى سنة الاقتلاع المر، إلى مسقط رأسه قرية "سمخ" قرب بحيرة طبرية، حيث جيوش الإنقاذ القادمة من وراء الحدود، مقدما في الوقت نفسه "صورا متقاطعة لشخصيات فلسطينية وعربية التقت على أرضية الدفاع عن فلسطين، وكاشفا في الوقت نفسه دواخل هذه الشخصيات وذكرياتها، وما آلت إليه مهمة الإنقاذ بتقاطعها مع الواقع السياسي العربي السائد في تلك الأيام"(15).

تتجسد في هذه الرواية رؤية الكاتب لأهمية البعد العربي في الصراع العربي الإسرائيلي. فالشعوب العربية تتعاطف مع أهل فلسطين وتقف إلى جانبهم، مثلما يتعاطف الشعب الفلسطيني مع الشعوب العربية ويشاركها آلامها وأحزانها.

تتكون الرواية من ثلاثة عشر فصلا. يتخذ الفصل الأول منها عنوان "سمخ ( جنوب البحيرة) 1948"، وهو أضخم فصول الرواية إذ جاء في إحدى وخمسين صفحة، شغل منه عرض واقع الأزمة بشخصياته وأحداثه أربعين صفحة، وفيه نلمس حنينا جارفا عند الكاتب لإعادة بعث عالم فلسطين القديم من خلال الشخصيات والمشاهد التي رسمها: فهناك شخصية الحاج "حسين" مالك الأرض،الذي يجتمع في مضافته الرجال يتسامرون ليلا، ويتناولون ما لذ من الطعام وطاب. وهناك أخته الحاجة "حفيظة " التي اعتادت الخروج في موسم (التغريب) لجمع السمن والعسل والكشك والفريكة. وهناك شخصية الطفل "راضي" الابن الأكبر للحاج حسين الذي وظفه الكاتب لتحقيق عدة أهداف.

ومن الشخصيات الأخرى، "نجيب" صياد السمك الذي تفوح منه رائحة البحر والذي طلق زوجته "بدرية". وهناك "خالد الزهر" و "أبو حامد" و "أحمد بك"... ومعظم هذه الشخصيات تتخذ مواقعها عند الكاتب في الجزء الثاني من هذه الرواية "ماء السماء".

أما الفصول الثالث والسادس والعاشر والثالث عشر فقد وقفها الكاتب على "عبد الرحمن العراقي"، ذلك المناضل الذي اجتاز الصعاب والتحق بجيش الإنقاذ، ليكتب مذكراته أثناء إقامته في معسكر للتدريب في فلسطين وبعد مغادرته إياها.

جاءت نهاية الرواية مخالفة لما هي عليه في الروايات السابقة عليها في الزمن الكتابي التالية لها في الزمن الروائي، فقد كانت نهاية سوداوية على الرغم من واقعيتها وتحققها على أرض الواقع. ولا ريب أن الظروف التي أحاطت بكتابتها والمتمثلة بخروج المقاومة الفلسطينية من بيروت وقد ساهمت في ذلك.

ينهي "عبد الرحمن العراقي" مذكراته على النحو التالي:

"أدركت عند ذلك أنه ضاع كل شيء، وأن كل الدروب أصبحت تفضي إلى الغربة والشتات، فيا لكآبة المنظر ووحشة الطريق"(16).

رواية "نهر يستحم في البحيرة"

صدرت رواية "نهر يستحم في البحيرة" عن دار الشروق بعمان 1997، وذلك بعد ست سنوات من صدور رواية "بحيرة وراء الريح". وقد صدرت الطبعة الثانية من هذه الرواية عن دار "شرقيات" بالقاهرة .

يتطابق الزمنان الروائي والكتابي في هذه الرواية. ولا يعتمد فيها الكاتب على ما رواه الآخرون بل على ما رأى وسمع هناك ، إذ قدر له أن يعود إلى حلمه الجميل ، ويقوم بزيارة مسقط رأسه "سمخ" عقب اتفاقيات "أوسلو" للسلام .

يمكن اعتبار هذه الرواية الوجه المقابل لرواية "بحيرة وراء الريح" أو على الأقل فيها شيء منها؛ فالمكان نفسه، إلا أن إحداهما رواية للنكبة، والأخرى للعودة بالنسبة للكاتب.

تتضمن هذه الرواية قدرا كبيرا من البحث والتأمل والنقد والرؤية؛ فقد تحدثت عن التعايش اللفظي، والسلام الضائع؛ فهناك التصاريح والحواجز المنتشرة على الطرقات. وقد عبر عن ذلك أحد الشخصيات التي قامت بزيارة "سمخ" بقوله: إنه وجد سيدة مسنة ،تتوكأ على عصا، والتجاعيد تغزو وجهها، وهي لا تسمع ولا ترى(17).

هناك ثلاث شخصيات حقيقية في الرواية قامت بزيارة "سمخ": يحيى يخلف الذي توارى وراء شخصية السارد، و "أكرم العابد" رجل الأعمال الذي حصل على الجنسية الأمريكية ويود زيارة "سمخ" للقاء "البيرتا" زوجة عمه في السابق، و "مجد" الفتاة الفلسطينية التي ظلت تقيم في فلسطين ورغبت في مشاركتهما الزيارة.

هناك شخصيات أخرى متخيلة وظفها الكاتب كشخصية الخال "عبد الكريم" وشخصية الجندي الياباني "هيرو أونودو" الذي ليس له في العير ولا في النفير وإنما وظفه الكاتب ليختتم به الرواية.

كان يحيى يخلف يحن باستمرار إلى مسقط رأسه، ولم تفارق مخيلته تلك السنوات القصار التي قضاها على ترابه قبل نزوحه عنه مكرها. وقد عبر عن ذاك الحنين بقوله:

" كنت أرغب في أن أرى الحلم الذي عاش في سويداء قلبي، كنت أرغب في أن أرى محطة السكة الحديد، طيور الحجل، البحيرة، البنط، بيت اللنش، نبات الشومر والمرار والكرسعنة، كنت على استعداد كي أدفع ما تبقى من عمري من أجل رؤية سطح البحيرة الذي يشبه بطن غزالة"(18).

وفعلا، تحقق ليحيى يخلف العودة إلى مسقط رأسه، ولكن عودته لم تكن مكللة بأقواس النصر ولا بأكاليل الغار. كانت "سمخ" غير تلك التي حفرها في ذاكرته وملكت عليه فؤاده، إلى درجة جعلته يتساءل:

" هل حقا أنا في "سمخ"؟ هل هذا ما كنت أنتظره وتوقعت أن ألقاه؟ لم أكن أشعر بألفه مع المكان. حاولت أن أعيد ترتيب الأماكن والأشياء في خيالي، عند هذا الشاطئ كانت تنمو حياة من نوع آخر، فالبحيرة بالنسبة لأهالي بلدنا مثل الشمس أم الحياة"(19).

أفاض النقاد في الحديث عن هذه الرواية. وقد وصفها بعضهم بأنها رواية الخيبة، وأن الخيبة فيها تصل إلى درجة الفجيعة، إلى درجة جعلت الراوي يمني النفس بالعودة إلى المنفى، "للفلسطينيين في الخارج حلمهم الجميل الذي يسكنون فيه منذ ستة وأربعين عاما"(20).

دافع يحيى يخلف عن موقفه هذا في رده على سؤال وجهته له شخصيا حول الموضوع، بقوله: " كانت عودتي إلى سمخ عودة مبتورة".

كانت عودة يحيى يخلف إلى"سمخ" مبتورة لأنها كانت عودة زائر لا مواطن، وكانت مبتورة لأن مئات الآلاف من الفلسطينيين في الخارج ما زالوا يحلمون بالعودة ، ومبتورة لأن فلسطين التي تشكلت لديه من خلال ذكرياته وحكايات الآباء والأجداد غير فلسطين التي رآها عند عودته, رأى "سمخ" أخرى غير تلك التي عهدها؛ أبنية إسمنتية لا تنسجم مع نسيج المكان ، ولم يعد هناك بيادر يكوم فوقها المحاصيل، وتقام في لياليها حفلات السمر والغناء.

تنتهي الرواية بعودة ثلاثتهم من "سمخ"، وقد هالهم ما رأوا وراعهم ما سمعوا. وأحس الراوي بخور في مفاصله، وأنه أشبه بحصان هرم ينتظر بشوق رصاصة الرحمة لتريحه مما هو فيه.

وشطت بالراوي مراكب الذاكرة إلى مسرح الحلم ، إذ رأى الجندي الياباني "هيرو أونودو" يأبى التكيف والتدجين، ويفر نحو دغل من الأشجار. وحين تبعه نحو الدغل، اصطدم رأسه بمدخل المغارة ، فأفاق على إثرها ليجد نفسه مع أكرم ومجد في السيارة. ويرد أكرم على الجندي الإسرائيلي عند نقطة العبور بالقرب من ( بيت سيرا) عندما سأله:

* هل تحملون سلاحا؟
* ارتسم القلق على وجه مجد، أما السيد أكرم فقد صاح بغيظ
* أجل ... معنا قنبلة.
* رفع الجندي سلاحه:- أين هي؟
* صرخ السيد أكرم في وجهه قائلا: القنبلة موجودة داخل صدري...في أعماقي...
* حذار من الاقتراب فقد تنفجر بين لحظة وأخرى.(21)

رواية "ماء السماء"

صدرت رواية "ماء السماء" عن دار الشروق للنشر والتوزيع بعمان سنة 2008، وهي تقع في 285 صفحة من القطع المتوسط، وتتكون من 38 فصلا مرقما. وقد تأخر صدور الرواية كثيرا إذ بدأ الكاتب بوضع مخططاتها الأولية منذ انتهائه من كتابة جزئها الأول "بحيرة وراء الريح" سنة 1991. ويعزو يحيى يخلف سبب ذلك إلى اندلاع الانتفاضة الفلسطينية ، وما رافقها من اجتياحات إسرائيلية متكررة كاجتياح سنة 2002، حيث عكف على كتابة روايته التسجيلية "يوميات الاجتياح والصمود"، وكذلك كتابة العديد من الشهادات حول الانتفاضة.

نحن أمام رواية بثلاثة أجزاء: الأول مرجعي، والثاني رمزي يكمل الجزء الأول ولا ينفصل عنه إلا ورقيا، ويتحدثان عن جيل النكبة عبر رحلته المؤلمة الشاقة من بدايتها سنة 1948 وحتى تلك الفترة التي شهدت انطلاقة الثورة الفلسطينية 1965.أما الجزء الثالث "جنة ونار" فهو قيد الطبع عند كتابة هذه السطور.

اسم هذه الرواية هو ماء السماء، وهو الاسم الذي أطلقه "أبو حامد" على تلك الطفلة البائسة التي وجدها في لفة من قماش على قارعة الطريق ، فحملها إلى زوجته وتبنياها. وماء السماء ليس المقصود به المطر الذي كان يعذب ساكني الخيام من اللاجئين، ولكنه "ماء السماء المليء بالرحمة والعدل، والذي سينزل من السماء السابعة ذات يوم، فهو ماء مختلف"(22).

كانت الصعاب الرفيق اليومي لشعب خرج هائما على وجهه لا يملك من مقومات الحياة شيئا، فكان عليه أن يناضل من أجل المأوى ومصدر الرزق. لقد بات عزه ذلا، ونعيمه شقاء: فالحاج "حسين" وجيه القوم في "سمخ" قبل النكبة الذي كانت مضافته تعبق برائحة البخور والبن والهال، وكانت مآدبه تكفي لإطعام جميع من في القرية... اضطر أن يعمل بائعا للملابس المستعملة وعاملا في رصف الطرق وحارسا ليليا. أما "عبد الكريم الحمد" فاضطر هو الآخر أن يعمل في ورشة للسيارات المستعملة. كما أن العمة "حفيظة" صاحبة الأمر والنهي باعت خرافها واحدا بعد الآخر لتوفر لقمة العيش.

لم تقتصر المأساة على البشر، بل تجاوزتهم حتى إلى الحيوان؛ فكلب عبد الكريم المدلل في فلسطين أصبح مشردا عدائيا في المخيم إذ لم يجد له مأوى فيه، وكان لا بد من التخلص منه بدس السم في طعامه. وفرس الحاج حسين البيضاء أصيلة الأصايل التي كانت تطعم باللوز والسكر، حبست في الخان، فترهل جسمها وسقطت جثة هامدة.

لم تكن الرواية جميعها لتسير على هذه الشاكلة، فمن بين شخصيات الرواية من تمرد على تلك الحياة البائسة وانطلق من دياجير ظلماتها نحو النور والفضاء الرحب ليشكل أساس الثورة الفلسطينية. وهناك شخصيتان يمكن اعتبارهما جديرتان بهذا التوجه وهما شخصية راضي وشخصية بدرية.

شهد "راضي" النكبة بمراحلها المختلفة، هاجر من "سمخ" وله من العمر أربع سنوات، والتحق بالمدرسة مبكرا. كان محبوبا من معلميه لتفوقه وذكائه. أنهى دراسته الثانوية والتحق بجامعة دمشق لدراسة الحقوق. وعندما عاد أعلن انضمامه إلى حركة تحرير وطني فلسطينية تصدر مجلة اسمها "فلسطينيا" من بيروت. كان هذا هو النبأ الذي زفه راضي إلى بدرية عند عودته من دراسته في دمشق.

يمكن اعتبار شخصية "بدرية" الشخصية المركزية في هذه الرواية. وهي نموذج للمرأة الفلسطينية المكابرة. شاركت في المظاهرات، ورفضت أن تعمل خادمة، وتعلمت فن القص والتفصيل، وأقامت في المخيم مشغلا خاصا بها. ارتبطت بنجيب ثم طلقها، ثم تعثرت خطاها عندما أرادت الارتباط ببائع العنبر، ثم تعثرت للمرة الثانية حين أرادت الارتباط بمدرس الرياضة.

" كان الكاتب أكثر من متألق، وقد تكون بدرية هي تجسيد مكثف لنساء فلسطين الصامدات الصابرات"(23).

تنتهي فصول هذه الرواية عندما التأم شمل من بقي من أسرة أهل "سمخ" الذين هاجروا: الحاج حسين وابنه راضي وأمه خديجة، وأبو حامد وزوجته وابنته بالتبني "ماء السماء" بعد عودتهم من لبنان، وبحضور بدرية وطليقها السابق نجيب.

عاد "نجيب" بعد أن احدودب ظهره. وكاد اليأس أن يستأثر بقلبه، لولا معرفته بقصة ماء السماء التي أعادت الأمل إليه، فهي ابنة النكبة، إلا أن جيلها هو جيل الثورة القادمة.

يقطف نجيب وردة بيضاء ناصعة ويقدمها لبدرية. تستأنف العلاقة الحميمة بين نجيب وبدرية بعد فراق مأساوي، وفي غمرة ذلك كله يهدي الحاج حسين بندقيته القديمة إلى المحارب المجرب نجيب.

رواية "تلك الليلة الطويلة"

 صدرت رواية "تلك الليلة الطويلة" عن دار الآداب ببيروت سنة 1992. وهي رواية تسجيلية تقع في 167 صفحة من القطع المتوسط. وقد صدرها الكاتب بالنص التالي:

" في تلك الليلة الطويلة، كانت طائرة الأخ أبو عمار بالنسبة لي ترمز إلى القضية الفلسطينية التي حاولوا إلقاءها في صحراء النسيان".

يتطابق الزمنان الروائي والكتابي في هذه الرواية. وقد اعتمد فيها يحيى يخلف على شهادات طازجة لم يفت عليها أكثر من شهر لأناس عايشوا الحادث سواء كانوا مع الرئيس ياسر عرفات داخل الطائرة ، أو عن جنود الثورة الذين كانوا في موقع قوات القدس القريب من مطار(السارة) في الصحراء الليبية حيث سقطت طائرة الرئيس.

كان مقررا للطائرة التي تقل الرئيس ياسر عرفات الهبوط في مطار الكفرة الليبي للتزود بالوقود في رحلتها من الخرطوم إلى تونس، إلا أن سوء الأحوال الجوية اضطرها للتوجه إلى مطار السارة حيث سقطت هناك.

تصف الرواية الحادث بكل تفاصيله، وكيف واجه الجميع هذا الموقف المروع كل حسب قدرته على التحمل. وهنا يبرز دور الرئيس كقيادي ناجح في الإمساك بزمام الأمور، ومحاولة مساعدة من معه في التغلب على تلك الساعات الصعبة.

تتحدث الرواية عن استعداد الهبوط الاضطراري للطائرة:

" هيأ نفسه لملاقاة وجه ربه، حافظ على هدوئه. لقد مرت عليه لحظات أشد قسوة خلال المسيرة الطويلة، حرص على أن يواجه الموت وهو في كامل جاهزيته العسكرية. لبس بدلته العسكرية، ووضع على رأسه الحطة والعقال، وحرص على أن يكون المسدس في مكانه"(24).

رواية "يوميات الاجتياح والصمود"

 صدرت رواية "يوميات الاجتياح والصمود" عن دار الشروق بعمان سنة 2002، وهي رواية تسجيلية تقع في 127 صفحة من القطع المتوسط. يرصد الكاتب في هذه الرواية حركة الأحداث من واقع قلبها، تلك الأحداث المتمثلة في الاجتياحات الإسرائيلية التي حدثت في الضفة الغربية خلال الفترة من 28 مارس (آذار) وحتى الأيام الأولى من شهر أيار (مايو) 2002. تلك العملية التي أطلقت إسرائيل عليها اسم "السور الواقي"، وبدأتها بمدينة رام الله في الساعة الثالثة صباحا ثم اتسعت بعد ذلك حتى شملت جميع الأراضي الفلسطينية.

هذه الرواية هي محاولة من "الكاتب لتسجيل الأحداث لحظة بلحظة، مارس فيها قدرته كأديب على تطويع الكلمة بغية التأثير، واعتمد فيها الكاتب على أحاديث ميدانية شاهدها وسمعها وعلى أحاديث الأصدقاء وحكايات الناس. كان ذلك بالرغم من أنه يحذر من خطر الكتابة الآنية للأحداث لأنها قد تقود إلى المباشرة والانفعال والصوت العالي"(25).

مرتكز الرواية ونقطة البدء فيها بل والنهاية هو يحيى يخلف، وقد أدى فيها جميع الأدوار بذكاء ولباقة منطلقا من حسه الثوري.

انطلق الكاتب من مسكنه في مدينة رام الله بدءا بزوجته وابنه هيثم وزوجته وابنيه طارق ورامي. تحدث عن عاداتهم ورغباتهم ووقع الأحداث عليهم. كما تواردت لذهنه طفولة أبنائه، ومعاناتهم شتى ظروف الحرب والحصار والشتات.

لم ينس يحيى يخلف أنه كاتب، وأن مسؤوليات كبيرة ملقاة على عاتقه. كان عليه أن يكتب ويمتثل لموعظة صديقه الشاعر محمود درويش عندما قال له:

"عليك ألا تنتظر حتى يهبط الوحي. الكتابة عادة، وعليك أن تجلس وراء الطاولة وتمارس الكتابة، وإلا فإن الزمن سيمر وأنت تنتظر"(26).

بدا يحيى يخلف بكتابة بيان موجه إلى المثقفين العرب، وقام بالاتصال بمن يعرف من أدباء وفنانين وأكاديميين ليحصل على توقيعهم على البيان، ثم أرسله بواسطة الفاكس إلى وسائل الإعلام المختلفة.

لم يكتف الكاتب بهذا الدور، بل قام بأداء دوره المنوط به ضمن أسرته الكبيرة عندما شارك في مسيرة جماهيرية لفتح طريق رام الله بير زيت وبالتحديد عند حاجز (سردا)، وقد تم فعلا الأمر بعد تراجع جنود الحاجز تحت ضغط المتظاهرين.

كانت الهجمة شرسة والخسائر فادحة: قدرت الآليات المشاركة بمعركة رام الله وحدها بثلاثمائة ما بين دبابة وآلية وجرافة. وامتلأت الأرض والسماء بدوي المدافع وأزيز الرصاص. وهناك أكثر من صورة وحكاية تدلي بشهادتها على هول ما حدث:

* مقتل الحاج عمر قائد فرقة الموسيقى التابعة لقوات الأمن الوطني وأربعة من الضباط كبار السن عند مدخل إحدى العمارات.
* امتلاء ثلاجات المشارح في المستشفيات بجثث الشهداء، مما اضطر لدفنهم في قبور جماعية.
* اقتحام البيوت واعتقال الشباب وتوقيفهم لساعات طويلة تحت ظروف جوية قاسية.
* الاعتداء على الآثار الرومانية والإسلامية في مدينة نابلس.

وأمام جحافل الهجمة الإسرائيلية الشرسة، كان هناك نماذج صمود باهرة:

* صمود مخيم جنين لأكثر من عشرة أيام، وإلحاقه خسائر فادحة بالقوات الإسرائيلية.
* صورة الفتاة "هناء" وهي تعتلي الجرافة المكلفة بفتح طريق رام الله بير زيت لتمسح العرق عن جبين السائق وتشد من أزره.
* صورة الفنان التشكيلي "جواد إبراهيم" المصاب بتصلب الشرايين، وهو يمارس هوايته في نحت الحجارة غير آبه بظروف منع التجول.
* مشهد الراعي الذي يسوق قطيعه إلى المرعى، ويمر بالقرب من الراوي، فيسأله: "كيف تخرج في مثل هذه الظروف. ألا تخشى الموت؟ أجاب الراعي الكهل: الموت والحياة سيان هذه الأيام"(27).

وشاركت الطبيعة الصامتة والمتحركة الإنسان الفلسطيني مشاعره، وعانت مثلما عانى:

* هناك الطائران العاشقان اللذان كانا يبحثان عن مكان يصلح لإقامة عشهما، غير أنهما فرا نجاة بريشهما.
* هناك سرب الحمام الذي أخذ يذرع الفضاء قيل أن ينقشع الضباب بشكل ينم عن الذعر أكثر مما ينم عن السرور.
* هناك الكائنات الصغيرة التي احتمت بجحورها عند سماعها دوي المدافع وهدير الدبابات.

وبالمقابل هناك زهرة البنفسج التي أخذت تطل برأسها بعد أن تفتحت، وحولها براعم غافية تعد بالتفتح بعد انقشاع الضباب وزوال الصقيع.

وسرعان ما يستقرئ يحيى يخلف على ضوء ما يرى مستقبل الوطن "ها هو ربيع فلسطين يقبل من وراء الضباب والدخان والحريق، دون أن نحتفي به. لذلك قمت وفتحت نوافذ المنزل جميعها"(28).

**الهوامش**

1. يخلف، يحيى: يوميات الاجتياح والصمود، ص41.
2. عيد، حسين: قضية فلسطين والأدب، ص32.
3. انظر قضية فلسطين والأدب،حسين عيد: ص73.
4. انظر www.diwanalarab.com، د.عادل الأسطة.
5. عيد، حسين: قضية فلسطين والأدب، ص32.
6. انظر www.diwanalarab.com، د.عادل الأسطة.
7. عيد، حسين: قضية فلسطين والأدب، ص12.
8. انظر قضية فلسطين والأدب، حسين عيد: ص28.
9. يخلف، يحيى: نجران تحت الصفر، ص112.
10. يخلف، يحيى: تلك المرأة الوردة، ص10.
11. يخلف، يحيى: تلك المرأة الوردة، ص40.
12. يخلف، يحيى: تفاح المجانين، ص9.
13. انظر في الرواية الفلسطينية، فخري صالح: ص127.
14. عيد، حسين: قضية فلسطين والأدب، ص68.
15. انظر موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، سلمى الخضراء الجيوسي: ص437.
16. يخلف، يحيى: بحيرة وراء الريح، ص277.
17. انظر نهر يستحم في البحيرة، يحيى يخلف: ص125.
18. يخلف، يحيى: نهر يستحم في البحيرة، ص19.
19. يخلف، يحيى: نهر يستحم في البحيرة، ص99.
20. يخلف، يحيى: نهر يستحم في البحيرة، ص117.
21. يخلف، يحيى: نهر يستحم في البحيرة، ص144.
22. يخلف، يحيى: ماء السماء، ص200.
23. انظر www.aljabha.org، عودة بشارات.
24. يخلف، يحيى: تلك الليلة الطويلة، ص60.
25. انظر www.aljazirah.com.sa/culture، علي الألمعي.
26. انظر قضية فلسطين والأدب، حسين عيد: ص127.
27. يخلف، يحيى: يوميات الاجتياح والصمود، ص55.
28. يخلف، يحيى: يوميات الاجتياح والصمود، ص39.

**المصادر والمراجع**

**أولا: أعمال الكاتب الأدبية**

1. بحيرة وراء الريح: دار الآداب، بيروت، 1991.
2. تفاح المجانين: دار الحقائق، بيروت، 1982.
3. تلك الليلة الطويلة: دار الآداب، بيروت، 1992.
4. تلك المرأة الوردة: دار ابن رشد، بيروت، 1980.
5. ماء السماء: دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2008.
6. المهرة: وزارة الإعلام العراقية، 1974.
7. نجران تحت الصفر: دار الآداب، بيروت، 1976.
8. نشيد الحياة: دار الحقائق، بيروت، 1985.
9. نهر يستحم في البحيرة: دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 1997.
10. نورما ورجل الثلج : دار ابن رشد، بيروت، 1977.
11. يوميات الاجتياح والصمود: دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2002.

**ثانيا: مصادر ومراجع أخرى**

1. الجيوسي، سلمى خضراء: موسوعة الأدب الفلسطيني المعاصر، 2 النثر، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
2. صالح، فخري: في الرواية الفلسطينية، دار الكتاب، بيروت.
3. عيد، حسين: قضية فلسطين والأدب، يحيى يخلف نموذجا، دار الأسوار، عكا، 2010.

**ثالثا: مواقع الكترونية**

1. الأسطة، د.عادل: www.diwanalarab.com.
2. الألمعي، علي: www.aljazirah.Com.sa/culture.
3. بشارات، عودة: www.aljabha.com.